المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح[١] غسق »

وقال أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) :

« إن نظم القرآن على تصرُّف وجوهه واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم — يعنى العرب — ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه »

ذلك هو (الكتاب) وذلك — كما قال هذان الإمامان — أسلوبه ، وقد أقبلت (أوأدبرت) طائفة من العربانيين — أعنى المعروفين بالمستشرقين — تقول : (ليس أسلوب القرآن مبتدعاً وإنما قلد فيه سجع الكهان) وتلقف قولهم أو تخليطهم — جاهلين عَمِهين — متلقفون

وقد قالت تلك الطائفة الغربية مقولتها وأعْمِها من العربانيين المحققين يقولون كما قلتُ قِدْماً وأقول اليوم : إنه لم يثبت من منثور الجاهلية شيء ، فكيف اهتدت الفئة الضالة إلى أصل الأسلوب القرآني ؟ وإلامَ استندت ؟ وعلام بنت مزعمها ؟ ؟

إن كان هاديَ القوم شق وسطيح وخُنافر الحميري وسَواد ابن قارب وطَريفة وعُفيراء وأمثالهم من الكاهنين والكواهن وكانت الحجة تلكم الأساجيع — فقد ضلّ هاديهم ، وأودى الدليل .

إن سجع الكهان إنما قلد مفتعلوه في الاسلام نهج القرآن كما كان يقلده المخرق (المختار بن عُبيد الثقفي) الكيساني . والقرآنُ — كما قال ابن خلدون — لا يقلَّد ، فكان سجع الجماعة ذاك الكلام البهرج[٢]

وإن القوة التي أبدعت في العربية ذلك (الكتاب) وأخرجت من العرب تلك الأمة فإن القوة التي فطرت من العدم وجوداً ومن العربية (قرآناً) ومن العرب أولئك (الأصحاب) صفوة الناس وجوهر البشرية — هي ربة ذلك الأسلوب

إن نهج القرآن هو نهج المبْدِئ المبتدع ، لا طريق المقلّد المتبع ، وإنه لَوَحْيُ الله ، وإنه لكتابُ الدهر

« القارىء »

(١) الجنح — بالكسر وضم — : الطائفة من الليل

(٢) البهرج : الرديء . في (اللسان) : قيل هي كلة هندية أصلها نبهله وهو الرديء فنقلت إلى الفارسية فقيل نبهره ثم عربت بهرج

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

— ١٥ —

إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى المدينة التي تجرى من تحتها الأنهار . إلى مهد ليلى يطيب الإسراء

ولكن لابدّ من السلام على ليلى قبل الرحيل ، فقد صبرت النفس عن لقائها ثلاثة أيام ، بسبب حادثة وجدانية لا أجرؤ على تدوينها في هذه المذكرات ، وهي حادثة ضجّت لها أرجاء العراق ؛ ولكن لاموجب لتدوينها ، لأني أحب أن تموت وهي في المهد ، فقد تطويني طيّاً فأخرج من خدمة الحكومة المصرية وأفتح مكتب تصوير في بغداد ؛ وفي مصر رجل عظيم يعرف ما أعنى ، ويفهم كيف تستطيع هذه الحادثة أن تهدم ما بنيت من آمال

وأشهد أني كنت أملك نسيان ليلى أسبوعاً أو أسبوعين ، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان

وتفصيل ذلك أني رجل محزون ، محزون ، محزون ، ولو شئت لكررتها ألف مرة ، ولكني من أقدر الناس على الفرار من أحزاني . ولعلي أشبه الرجال بالشاعر الذي يقول :

جنَت عليّ الليالي غير ظالمةٍ ... إني لأهلٌ لما ألقاه من زمني
فما رأيتُ من الأخطار عاديةً ... إلا بنيت على أجوازها سكني
ولا لمحتُ من الآمال بارقةً ... إلا تقحّمتُ ما تجتاز من قُنن
أحلْتُ دنياي معنًى لا قرار له ... في ذمة المجد ما شرّدت من وسن

ولكن أحزاني تحقد على تجلدي أبشع الحقد . فتجمع جيوشها وتهجم عليّ من حين إلى حين ، وقد انتصرتْ في هذا اليوم مع الأسف الموجع ، فلم أجد مفرّاً من السلام على ليلى ، علّها تجفف دموعي وتبرّد أحزاني

إليك يا ليلى المرجع ، وإليك يا ليلى المآب

* * *

دخلت على ليلى في العصرية لأقضي في رعايتها أربع ساعات إلى أن يحين الموعد لقطار البصرة : فماذا رأيت ؟ ماذا رأيت من ليلى ربة العطف والحنان ؟

تلقتني عاصبة بعينين تقذفان بالجمر المتوقد ، وتحت قدميها ظمياء

— من أتى بك إلى هذه الدار ؟

— من أتى بي إلى هذه الدار ؟ هذه دار ليلاى !

— ليلاك ؟ وهل يمكن لرجل مثلك أن يطمع فى أن أكون ليلاه ؟

— سيدتي ، ماذا حدث ؟ خبريني فقد طار صوابي

— وهل تجهل ما حدث ؟ اسأل قلبك إن كان لمثلك قلب !

— إن قلبي يشهد بأنني وفيّ أمين

— وفى مثل ما صنعت تكون الأمانة ، ويكون الوفاء ! !

— سيدتي ، ماذا حدث ؟ خبّريني فقد طار صوابي

— هل تنكر ما شاع عنك ؟

— وما الذى شاع عني ؟

— يقول أهل بغداد إنك كنت مثال السخف فى سهرات المؤتمر الطبي . ويقولون إنك لم تترك سيدة إلا قبلت يديها ، وربما أوغلت فى السخف فقبلت جبينها وخديها

كذبوا ، فأنا لم أغازل أكثر من عشرين سيدة

— ما هذا التظرف السخيف ؟

— ليلى ، إسمعي ، أنت حمقاء

— أنت وحدك الأحمق

أنا وحدي الأحمق ؟ صدقت يا ليلى ، فلو كنت أعقل لرأيت لنفسى ألف مذهب فى الحياة غير مداواة الملاح !

— قلت لك إني أبغض هذا التظرف السخيف

— وهو كذلك ، تركت التظرف السخيف ، تركت التظرف السخيف ، ولكن اسمعي يا ليلى ، سأرحل عن بلادكم بعد شهرين أو ثلاثة ، وستبكين أيامى

— أبكي أيامك ؟ وهل كانت لك معي أيام يطول عليها البكاء ؟

— ليلى ، اسمعي واعقلي ، أنا لا أنكر ما وقع مني فى سهرات المؤتمر الطبي ، ولكني رجل حزين يداوي جراح قلبه بالعبث والمجون

— أعرف أنك حزين ، لأني أعرف المرأة التي كوت قلبك

— ما كوى قلبي أحد ، وإنما هموى هموم رجال لا تعرفينها يا حمقاء

— أنت وحدك الأحمق

— شيء غريب ! أهذا أدب النساء فى بغداد ؟

— هذا هو أدب النساء فى بغداد ، وستعرف عواقبه بعد حين

— ليلى ، يظهر أنك امرأة كسائر النساء

— النساء أشرف من الرجال

— المرأة أجمل من الرجل ، ولكن الرجل أشرف من المرأة ، لأنه يحتمل مصاعب وأرزاء لا تحتملها المرأة ، ولو كنت فى مكاني يا لئيمة ...

— أنت وحدك اللئيم

— من أين تعلمتِ هذه الألفاظ الغلاظ ؟

— تعلمتها منك !

— هل يسرّك أن نفترق ؟

— فى أمان الله !

* * *

وخرجت من غرفة ليلى والدمع في عيني ، فهذه آخر مرة أرى فيها المرأة التى آنست وحشتي فى بغداد . نعم هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الجميلة التى عرفتُ بها كيف استطاع العراق أن يسيطر على الآداب العربية مئات من السنين . هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الحلوة العذبة التى جعلت قلمي أطوع قلم ، وجعلت بياني أعظم بيان . هذه آخر مرة أشرب فيها صُبابة الكأس ، والتي سيفي وأطوي لوائي ، إلى آخر الحياة ، إن كان لمثلي بعد ليلى حياة ! !

وفى تلك اللحظة بكت السماء على غير موعد فظننتها تبكي لبكائي ، أنا العاشق المسكين الذى لم يُحفظ له جميل

وقد سقطتُ على السلم مرتين ، فرأيت من الحزم أن أجلس لحظة فى الحجرة التي تقارب الباب إلى أن تجف دموعي وترجع قواي

وما كدت أجلس حتى أدركتني ظمياء وهي تقول فى تلهف :

عيوني ! دكتور زكي ! عيوني ، تعال ، تعال

ومدت يدها لترجعني إلى ليلى ، فدفعتها بعنف ، وخرجت

* * *

وفى أثناء الطريق عاد صوابي ، وقد عجبت من أن يعود بهذه السرعة ، ولكن قلب المحب له أحوال ... وتذكرت أن ما وقع من ليلى غير مستغرب من النساء ، فإن من هوى المرأة أن تجحد

الجميل . تذكرت أن المرأة يؤنسها ويبهجها ويرضيها أن تنكر على الرجل كل شيء ، وهي تجد لذة في الجحود وتستروح به كما تستروح بعض الأفاعي بسواد الليل

وتذكرت أخطائي في معاملة النساء ، فقد كنت دائماً أعامل النساء معاملة وحشية ، لأنني عشت دهري مدللاً بين الملاح ، ولكن هذا الدلال كانت له عواقب سود ، فقد أضاع عليّ فرصة سأندبها ما حييت : أضاع عليّ المرأة الجميلة التي اتصلت بها منذ سنين بشارع الباطنية ، المرأة التي قسّم الله جسمها أجمل تقسيم ، وصاغها على أفضل نظام ؛ المرأة التي كانت تقول في كل لحظة : إيش سوّيت لي ؟ إيش صنعت لي ؟ وكنت يومئذ جاهلاً . وأي جهل أقبح من دعوة المرأة إلى حفظ الجميل ؟ وقد حملني هـذا الجهل على هجر تلك المرأة بقسوة وعنف .. ثم تطلّع إليها القلب بعد ذلك ، ولكني واحر قلباه عرفت أن رجلاً تزوجها ونقلها إلى دمياط

وكانت تلك المرأة على جانب عظيم من العفاف ؛ ولكني لا أزال أسأل : كيف كان يجوز في شريعتها أن تتمدد أمامي على السرير في غير ريبة ؟ وكيف كان يطيب لها أن تعرض عليّ محاسن جسمها في غير سوء ؟

أحب أن أعرف ما اختلف وما ائتلف من سرائر النساء ، فمتى أعرف ؟

أخشى أن يكون مصيري مصير الفرّاء الذي مات وفي نفسه شيء من "حتّى" !

والعشاق كالنحويين يموتون وفي أنفسهم أشياء
وحالي أغرب الأحوال ، لأني نحويٌّ وعاشق

* * *

وتذكرت أن ليلى كانت قد رقّت ولطُفت في الأيام الأخيرة ، فكنت أنعم منها بفنون من الأنس لا تحيط بها أوهام ولا ظنون . وتذكرت أني سأكون ألأم الناس إذا نسيت تلك المعاني الوجدانية التي كنت أتلقاها من عيني ليلى في كل لقاء ، وتذكرت أنها عراقية ، وأهل العراق كأهل بدر تُغفَر لهم جميع الذنوب

أرجع إلى ليلى ؟ أرجع ؟

لا . لن أرجع

ولكن ليلى مريضة ، وهجر المريض لا يستبيحه طبيب أمين

أعود إلى ليلى أعود

أعود إلى ليلى ، أعود

أعود إلى المرأة التي قالت إنها تشتهي أن تموت ورأسها إلى صدري . أعود إلى المرأة التي ملأت رأسي بالنور ، وغمرت قلبي بالحنان . أعود إلى المرأة التي أعزتني أكرم إعزاز ، ورعتني أشرف رعاية . أعود إلى ليلى ، أعود إلى ليلاي

وفي أي قلب غير قلبي تحيا معاني الوفاء ؟

سيموت الرفق يوم تموت ليلى ، وسيموت الشعر يوم أموت

أعود إلى ليلى ، أعود

ولكن ليلى أهانتني وجرحتني

لا بأس ، فليس يعيب الرجل أن تهينه الملاح . وأي هوان أقبح مما استبحت لنفسي في حيّ الحلمية يوم رجوت إحدى معشوقاتي أن تسمح لي بتقبيل نعلها

وكانت قبلة شهية جدًّا

أعود إلى ليلى ، أعود

أعود إلى الغرفة التي تزدان بمؤلفاتي وهي في صوان خاص ، وقد وُشّيت بالذهب وأسدلت عليها ستائر الحرير الشفاف ، ثم أرى ما تصنع ليلى ، فعهدي بها تنظر إلى الصوان الذي يضم مؤلفاتي وتقول : هذا زكي مبارك العالم وهو رجل محترم ، ثم تشير إلي وتقول : وهذا زكي مبارك العاشق وهو رجل سخيف :

عفا الله عن ليلى الغداة فإنها   إذا وُلّيت حكماً عليّ تجورُ

وما هي إلا لمحة طرف حتى كنت عند ليلى فرأيت السكينة في حلة تثير الدمع من أقسى الجفون

ونظرت إليّ ظمياء في حنان وهي تقول : لقد صح أملي فيك فقد أكدت لليلى أنك سترجع وما كانت تصدّق أنك سترجع

وتسكت ليلى فلا تتكلم ، كأنها تقاسي نوبة إغماء ، ثم تفتح عينيها بتكلف وتقول :

— أنتم يا رجال ليس لكم أمان !

وأكاد أصعق ، لأني سمعت هذه العبارة مليون مرة ، ولعلها أول جملة سمعها آدم من حوّاء

— ليلى !

— مولاي !

— مولاك ! وكنت من لحظات ترفضين أن تكونى ليلاى ؟

— إن رجوعك بهذه السرعة يشهد بأنك عليــل ، وقد صدق خصومك فى لبنان حين سموك « قيس الريض فى العراق »

— سنفترق فى حزيران

— ومن يضمن أن تحفظ العهد إلى حزيران ؟

— تأدبى يا ليلى ، فستبكين أيامى بالدمع

— تأدب أنت ، فستبكى أيامى بالدم

— الرجل أوفى من المرأة

— لم يخلق الله أغدر من الرجال

— المرأة سخيفة

— الرجل أسخف

وعند هذا الحد تدخلت ظمياء وهى تقول : أتريدون أن تمثلوا الرواية من جديد ؟ أنا لا أسمح لكم بهذا العبث ، اسكتى يا ليلى اسكت يا زكى

وقد عجبت من أن تكون لظمياء هذه السيطرة ، وأن ترفع الكلفة فى مخاطبتى مع أنى أستاذ عظيم . فقلت : وما شأنك أنت يا بنت ؟

فأجابت : احفظ أدبك ، فأنا حارسة هذا البيت ، وأنا ستُّ الكُلّ .

— ست الكل ؟

— نعم ست الكل ! ألا تفهم ؟

ثم رفعت يدها ولطمتنى لطمة غارت منها ليلى ، فنظرت إليها بغضب وقالت : الغزَل ممنوع فى هذا البيت !

وكانت ظمياء كالعصفورة التى يفزعها المطر فتفزع إلى نوافذ البيوت وتزقزق لترحمها القلوب ، فتدخلتُ لإنصافها وقلت : ما هذا غزَلاً ، إن هذا إلا تأديب

— ولن أسمح لِيدٍ أن تؤدبك غير يدى

— شرع الله ولا شرعك يا ليلى

فلطمتنى الشقية لطمة أحر وأعنف

ولم أفكر فى الدفاع عن نفسى ، وإنما أخذ قلبى يسأل : أى الكفين أندى وأرق ؟ كف ليلى أم كف ظمياء ؟

إن عينى تعودت كل هنــد جمت كفها مع الرفق لينا

ومن الواضح أن هذا الاعتداء كان إيذاناً بانتهاء الخصام

وفى لحظة واحــدة تحولت الدار إلى بحر يموج بالبهجة والانشراح

* * *

— ليلاى !

— مولاى !

— أنا أحبك !

— وأنا أبغضك !

— سمعت أنك بصرية

— أبى بصرىٌّ أما أمى فموصلية

— وأنا أستأذنك فى زيارة البصرة

— لا تفعل

— ولماذا ؟

— البصرة لا تزار فى هذه الأيام ، وإنما تزار فى الموسم

— أى موسم ؟

— موسم التمر ، حين تذهب الصبايا إلى النخيل مع تباشير الصباح ، موسم العيون والقلوب ، موسم الصيد يا جهول

— جهول ؟ وأنا أستاذ عظيم ؟

— الأساتذة أجهل الناس ، لأنهم يكتفون بما فى الكتب من وصف الأشياء ، ويجهلون حقائق الأشياء

ولكن أنا أحاول الوصول إلى حقائق الأشياء

— وإذاً فلن تصلح للأستاذية

— وكيف ؟

— ألم تفهم يا غافل أن الرجل لا يصلح للأستاذية إلا إذا كان قطعة من الثلج ؟ الأستاذ الحق فى بلاد الشرق هو الرجل الذى يحفظ

— ولا يعقل ؟

— ليس من الضرورى أن يعقل ، لأنه لا يشترط فى الأساتذة عندنا أن يكونوا يعقلون . الأستاذ الحق يا غافل هو الرجل الذى يضيع نصف الوقت أو كل الوقت فى التبرم بالمجتمع ، ويقول فى كل حين :

هذا الزمان الذى كنا نحاذره فى قول كعب وفى قول ابن مسعود

إن دام هذا ولم يحدث له عِوض لم يُبك مَيت ولم يُفرح بمولود

أو كما قال : يهمنى أن أعرف شيئاً فى هذا الموضوع يا ليلى ،

فأنا طبيب أضاعه الأدب ولم يبق أمامه غير احتراف التدريس

— زين ، زين ! وأنا أعلمك ، ولكن ادفع الثمن

— وما هو الثمن ؟

— قبّل يدي

— أقبّل يديك ورجليك يا ليلى

— اسمع يا زكي

— أنا الدكتور زكي

— لن تكون دكتوراً إلا يوم تصبح مثال الغباوة والجهل

— وهو كذلك . هاتي ما عندك يا داهية !

— اسمع أيها الطفل الكبير ! إن الأمم المتأخرة تعيش بعقل القرن التاسع قبل الميلاد ، يوم كانت الأستاذية وقفاً على الكهان ، والكهان كانوا قوماً منافقين ، وإليهم كان الأمر في التعليم والتثقيف ؛ وهم الذين سيطروا على المصريين والآشوريين والكلدانيين . ومن واجبي أن أحذرك عواقب الثقة بأهل عصرك من أهل الشرق ، فهم يتظرفون ليقال إنهم متمدنون . والبرهان على ذلك أنهم لا يشهدون لمحة من ضوء الفكر إلا أطفأوها بالبصق لا بالماء . فاحترس يا غافل من الثقة بأهل زمانك فاني أخشى أن أسمع من أخبارك ما يسوء بعد حين

— سيدتي ! إن مصر تحضرت وهي تقود الشرق

— لن أصدق أن مصر تحضرت إلا يوم يقام المرقص في ميدان الأزهر كما يقام المرقص في ميدان السوربون

— أنت سخيفة يا ليلى !

— وأنت أسخف !

— أنت لئيمة

— أنا أعرف ما تريد ، أعرف أنك تريد أن أعرك أذنك ، ولكني لن أفعل

— ولماذا يا شقية ؟

— لأنك جهول

— أنا عالم علامة

— لو كنت عالماً لما فضحت نفسك بنشر أحاديث الحب في الجرائد والمجلات

— إذاً ماذا أصنع ؟

— اكتم غرامك ونافق ، كما يصنع فلان الذي يلقى الله بالفجور ويلقى الناس بالعفاف

— ولكن أنا أحب أن ألقى الناس بالفجور وألقى الله بالعفاف .

— غلبتني أيها المؤمن ، فإن الذي يصلح ما بينه وبين الله لا يضره أن يفسد ما بينه وبين الناس

— وآية ذلك يا مولاتي أن تلاميذي لم يفسد رأيهم فيّ أبداً ، فما اشتغلت بالتدريس في معهد إلا شهدت أحجاره بأني أصدق من عرف من المدرسين

— أنت إذاً موفّق

— تحبينني يا ليلى ؟

— أنا أبغضك !

— ولكن أنا أحبك !

— أمامك دجلة ، فاكرع منها كيف شئت !

— أستأذنك في السفر إلى البصرة

— في رعاية الله وأمان الهوى

— ألا تغارين من سفري إلى البصرة ؟

— أنا لا أغار عليك !

— أنت إذاً لا تحبينني !

— ما أنكر أني أحبك بعض الحب ، ولكن لا موجب للغيرة ، فقد ضمنت أن تكون لي طول عمرك . ولقد قيدت قلبك بقيود من حديد . أما سمعت ما قال أحد فضلاء الحاضرين بمحطة الاذاعة الفلسطينية ؟

— وماذا قال ؟

— قال إنك تحبني ، وأنني وهبتك الخلود ، وما يقال في فلسطين تسجله السماء

— وأقول في البصرة إني أحب ليلى ؟

— قل في البصرة إنك تعبد ليلى ليكرموك

— وأنت تحبينني ؟

— أنا أبغضك

إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى وطن ليلى التي تبغضني أمتطي قطار المساء ، وأنا على موعد مع صاحبة العينين ، فما الذي سيحدث في القطار وفي البصرة ؟ أمري إلى الله وإلى الحب !

« للحديث شجون » زكي مبارك